

الرؤية الإسلامية للحرية وحقوق الإنسان

د. عمار طسطاس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة

أولا. صورة الإنسان في القرآن الكريم:

إن تصوير القرآن الكريم لحقيقة الإنسان ومكانته في الوجود هي أساس حرياته وحقوقه وواجباته التي تقتضيها فطرته وغاياته الوجودية في علاقاته بالله سبحانه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون وبمهامه في الحياة الدنيا وبمصيره في الدار الآخرة.

لذلك حرص القرآن الكريم على تعريف الإنسان للإنسان: وهو أن الإنسان واحد في كل إنسان بخصائصه البشرية الواحدة التي خرج بها إلى الحياة الدنيا جسدا وروحا، بغض النظر عن الفروق الظاهرة بين الناس من سلالة ولون ولغة وجنس.

وقد تميز تعريف الإنسان في القرآن بميزتين هامتين:

الأولى: هي التعريف المجرد للإنسان من الفروق الظاهرة بين البشر، مثل الجنس (الذكورة والأنوثة)، ومجرد من فروق اللون، والعرق، واللغة، قال تعالى في ذلك: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (22)¹.

والميزة الثانية هي بيان العناصر الأساسية المشتركة في تكوين حقيقة الإنسان في كل زمان ومكان، التي تجعل من الإنسان واحد في كل إنسان². وقد

¹ سورة الروم، الآية 22.

² أنظر: علي عيسى عثمان: الإسلام لماذا وكيف، ص 17 وما بعدها.

جمعت آيات من سورة السجدة الخصائص الفطرية التي يتكون منها كل إنسان، في قوله عز وجل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (9)﴾¹.

تتضمن هذه الآيات الكريمات أهم العناصر التي تعرّف بحقيقة الإنسان كما خرجت من يد بارئها، بمعزل عن الفروق الظاهرة بين البشر من جنس ولون ولغة، هو ما يمثل الصورة الحقيقية للإنسانية الإنسان وما تنطوي عليه من حقوق وواجبات وحريات، وهذه العناصر هي:

- العنصر الأول: ويتمثل في الأصل الواحد للبشر، أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾.

- العنصر الثاني: هو نظام التكاثر الواحد في البشر، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾.

- العنصر الثالث: التسوية الواحدة في خلق البشر: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ...﴾.

- والعنصر الرابع: النفخة من روح الله في كل منهم: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾.

- والعنصر الخامس: وجود وسائل المعرفة نفسها في كل البشر: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

- العنصر السادس: وجود الإرادة الحرة اللازمة في كل واحد من البشر لعله يكون من الشاكرين: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

هذه العناصر الستة مجتمعة هي ما يبرز هوية الإنسان الحقيقية في الرؤية الكونية التوحيدية القرآنية، وهي الخصائص التي يتوجه إليها الخطاب القرآني

¹ سورة السجدة، الآيات 7-9.

بالتكاليف باعتبارها من السنن الثابتة في الفطرة الإنسانية، وهي التي تقرر عالمية الإنسان، والمساواة بين الناس ذكورا وإناثا وشعوبا وأعراقا في القيمة والكرامة الآدمية. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ (1) ¹.

وبناء على ذلك صار من حق الإنسان في الرؤية القرآنية أن يعترف كل مجتمع بشري بكل تلك الخصائص الفطرية وما تشتمل عليه من قوى معرفية ووجدانية وإرادية أخلاقية، وأن يتم على أساس هذا الاعتراف تنظيم حياة المجتمع بما يكفل النمو السليم لهذه القوى الفطرية الإنسانية.

وكل مجتمع يدعي أنه يحترم حقوق الإنسان وحياته - في هذا العصر - ولا يعترف بكل خصائص إنسانية الإنسان، فهو ادعاء كاذب أو منقوص، لأنه بإسقاطه لبعض الخصائص يتنكر لحق من حقوق الإنسان أو بعض حرياته.

فإسرائيل - اليوم - لا تعترف بالإنسان، لأنها تميز بين اليهود وغير اليهود تمييزا عنصريا، ولا تطبق حقوق الإنسان على غير اليهود بمثل ما تطبقها على اليهود، بل تعتبر انتهاك حقوق العرب والفلسطينيين حقا مشاعا لأطماعها الجشعة بلا قيود وتحت سمع وبصر دول التمدن الغربي المعاصر وتأييدهم لذلك الظلم ودعمه فوق ذلك.

ثانيا. الغاية من وجود الإنسان:

حدد القرآن الكريم غاية الوجود من الإنسان، وهي الخلافة في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، وتعد النظرة القرآنية للغاية من وجود الإنسان واحدة من أربعة أنواع عرفها تاريخ الإنسان،

¹ سورة النساء، الآية 1.

تشترك البوذية والمسيحية في واحدة، وتنفرد العلمانية الدنيوية بنظرة مادية تتمركز حول المنفعة واللذة كغاية للحياة¹.

إن تصور البوذية للحياة الإنسانية يقوم على اعتبار أنها شر، وأن الوجود شر، ومن ثم يكون سعي الإنسان هو الخلاص منهما، ومن ثمة لم تقطع البوذية أن تقيم عمراناً، أو ثقافة وحضارة، وبقيت حركة شخصية ترغب في تهدئة أعصاب أتباعها حتى يأخذهم الموت.

وتشارك المسيحية البوذية في نظرتها إلى الحياة البشرية على أنها شر غير أنها أضافت إلى ذلك رذيلة أسطورية حين تصورت الخلاص قد تم بفعل تجسيد الله تعالى في يسوع المسيح ونزل إلى الأرض فدى ومحاولة لتبرئة الإنسان من خطيئته ومعصيته التي أوقعه فيها آدم، ولذلك قال المسيحيون أنهم طراز أعلى من البشر، لأن الله أحبهم محبة لا غنى له عنها فيهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقد كان من آثار هذه التصورات العقديّة نحو الحياة والغاية من وجود البشر أن لا تسمح بقيام العمران، بل هي أقرب إلى أن تدكه وتأتي عليه من الأساس، وفي نفس الوقت رفعت أوربا من شأن الإنسان رفعا خيالياً، مما حمله لاحقاً على التجبر والطغيان واستعمار الآخرين وإبادتهم أو استضعافهم.

ومع مطلع عصر النهضة في أوربا وما تبعه من عصر الأنوار تطلعت أوربا إلى النهضة والعمران فلم تجد أمامها سوى إزالة هذا الأثر من حياة الأوروبيين بالدعوة إلى علمانية لا دين فيها تضاد التصورات اللاهوتية الخرافية للكنيسة كما استبعدت القيم الأخلاقية الدينية من الحياة العامة، ولم تجد من القيم الأخلاقية المناسبة غير اللذة والمنفعة، فقامت هذه العلمانية تبشر باللذة وتعلي من شأنها في الحياة، وتحصيل ما أمكن من الإنتاج المادي لجني الأرباح لتحقيق هذه اللذة إلى أن وصلوا بالإنسان إلى درك الحيوان، همه الأنانية والطمع في الحصول على

¹ إسماعيل راجي الفاروقي: نظرية الإنسان في القرآن الكريم، ص 471 وما بعدها.

المادة، وفي سبيلها يسمح لنفسه بالنهب والسرقة والعنف تحت شعارات مبتذلة كالحرية وحقوق الإنسان.

وأما خلافة الإنسان في الأرض في الرؤية التوحيدية الإسلامية، فتعني أن الإنسان أفضل المخلوقات وأكرمها عند الله تعالى لما يتمتع به من خصائص فطرية تؤهله أن يكون عبداً لله بإرادته، وسيّداً في الكون يتصرف في كثير من شؤون الكائنات ويسخرها في عمارة الأرض وتحقيق مقاصد الاستخلاف.

ولذلك فللخلافة مضمون محدد، وهذا المضمون هو أمانة الله التي قال عنها عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾¹.

والأمانة التي لم تستطع السماوات والأرض والجبال أن تحملها هي التقوى، أو العبادة الاختيارية، ذلك أن إرادة الله تنفذ جبراً في السماء والأرض (العبادة الجبرية)، ومن ضمنها الملائكة تطيع الإرادة الإلهية بصورة إجبارية، قال تعالى: ﴿ لَا يَغْضُونَ اللَّهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

وتعد طاعة المخلوقات جزءاً من قوانين الطبيعة والإرادة الإلهية الجبرية في الخليقة، ولا يمكن الخروج عنها مطلقاً، قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾² (62).

فلا يمكن أن يفعلوا غير ذلك، وأن الباري تعالى جعل هذه الطاعة إحدى سننه في خلقهم.

وخلَقَ الإنسان - فقط - حراً ليطيعه أو يعصيه باختياره، وهذا الاختيار شرط للتقوى، والتقوى تعتبر من أعظم ثمار العبادة والقيم التي يطلبها الله من

¹ سورة الأحزاب، الآية 72.

² سورة الأحزاب، الآية 33.

الناس ويجعلها " معيار تفاضل " بينهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (13) ¹.

كما تكون فحوى هذه الأمانة الأخلاق، وهي العمل الصالح الذي يبتلى به الإنسان في كامل رحلة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (2) ².

وحتى يحقق الإنسان غاية وجوده في الاستخلاف على النحو الأمثل زوده الباري في فطرته بطاقات معرفية وروحية وإرادية، تمكنه من العمل والتأثير في بيئته الإنسانية والطبيعية.

وجعل في بيئته الإنسانية والطبيعية قابلية سماها القرآن الكريم (التخيير) بمعنى أن الدنيا كلها من قمر وشمس، من حيوان ونبات، من جبل ونهر وبحر، وإنسان مسخرة لعمل الإنسان، قابلة لتأثيره فيها.

والإنسان وهو يعمل وينجز مهمة الاستخلاف يعترضه خطران ينبعان من صميم حريته الإنسانية.

الخطر الأول هو وقوعه في الخطأ في معرفة إرادة الله رغم ما أوتي من المواهب والقدرات. والثاني هو وقوعه في المعصية باختياره - وهذا هو معنى الحرية الأخلاقية -.

فإذا أخطأ أو عصى كان لابد له من مصحح.

- أما الخطأ فتصحيحه في ما أنزل الله تعالى من وحي.

- وأما المعصية فتصحيحها بالإيمان والتوبة ³.

¹ سورة الحجرات، الآية 13.

² سورة الملك، الآية 2.

³ إسماعيل راجي الفاروقي: مصدر سابق، ص 471.

وبالرغم من هذا الخطر الذي يهدد من حين لآخر غاية وجود الإنسان في الاستخلاف، لابد للإنسان من تحقيقها، لأن تحقيقها تأكيد القيمة في حياة الإنسان، وتأكيد لإرادة الله سبحانه وتعالى في جعل الإنسان خليفة في الأرض.

وإذا قام الإنسان بالأعمال البناء العمرانية، على أساس من الإيمان بالله وطاعته وتحقيق أوامره ونواهيه، وعلى عدم التفريق بين الإنسان والإنسان، وكان ذلك العمل مسؤولاً، تحمله الإنسان بمسؤولية شخصية أكيدة، تلقى حسابه في هذه الدنيا وفي الآخرة، من جنة ونعيم، أو من نار وجحيم.

ثالثاً. حرية الإنسان وحقوقه في الرؤية الإسلامية:

قبل أن تتحول حرية الإنسان وحقوقه إلى عقد اجتماعي يؤدي أفراد المجتمع في ظله واجباتهم وينالون حقوقهم بحسب بلائهم بعدل وإنصاف، تكون في المنظور الإسلامي علاقة ذات طرفين، تعبر عنها الصلة بين الله والإنسان: التكليف من الله والمسؤولية بالنسبة للإنسان.

وبناء على ما سبق يمكن تحديد الإطار العام لحرية الإنسان وحقوقه في الرؤية التوحيدية الإسلامية، بالقول أنه ليس في الإسلام حرية دون مسؤولية، وفي الواقع ليس هناك حقوق إنسانية دون واجبات. فليس لنا حقوق متأصلة إلا إذا قبلنا واجباتنا تجاه الله، إذ أننا لم نمنح أنفسنا الوجود، ونحن البشر بحكم أننا مُنحنا هذا الشكل من الوجود من لدنه، ولذلك كان علينا أولاً أن نؤدي الواجبات التي تترتب على كوننا بشراً. وعندها فقط تكون لنا حقوق كبشر.

وفكرة تمتع الإنسان بحقوق متأصلة منفصلة عن خضوعه لله، ومنفصلة عن تأدية ما يترتب عليه من واجبات باعتباره خليفة الله على الأرض، غريبة عن المنظور الإسلامي، وبكل تأكيد هناك حقوق إنسانية في الإسلام، وهي واردة بوضوح في الشريعة ولكن هذه الحقوق قائمة على المسؤولية.